العصبية القومية

وأثرها في سقوط الأندلس

١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م

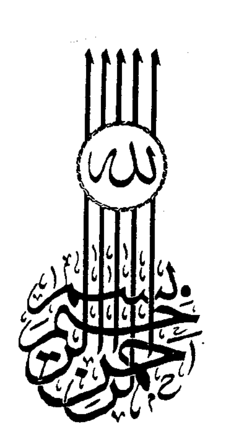
دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ القاهرة

الإدارة: ٧ ش السراى ـ أول المنيل ت . فاكس: ٩٨٧٩٢٤
الفرع: حدائق حلوان ـ بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

العصبية القومية
وأثرها فى سقوط الأندلس

تأليف

د . عبد الحليم عويس



ربما كان تاريخ بعض الأمراض مبكراً جداً في حياة بعض الجماعات والدول، ومع نمو الجسم تتوارى هذه الأمراض كامنة، تضغط عليها عوامل القوة حتى تحين الفرصة، فسرعان ما تشرئب هذه الأمراض بأعناقها ممثلة ظواهر اجتماعية أو أخلاقية حتى تصل في ظل غيبة الأطباء النطاسيين - إلى مرحلة من القوة والانتشار يصعب فيها علاجها، وقد تتطور فتصبح سرطاناً يمتد إلى كل خلايا الجسم إلى أن يقضي عليه.

ومرض العنصرية الذي يقوم على الشعور بالتميُّز العنصري والفوقية الجنسية لمجرد الانتماء إلى قبيلة أو قوم أو أرض.. هذا المرض الخبيث كان من الأمراض التي بدأت مبكرة جداً في الأندلس، ولم يجد - للأسف الشديد - من يعالج جذوره وبواعثه بالمبادئ التي جاء بها الإسلام في المساواة والعدل والتعاون على الخير العام، وذلك من خلال نسق من الحكم يعطي كل ذي حق حقه، ويستل من نفوس بعض الأجناس الشعور بالظلم

أو الدونية!!

لقد تقدم طارق بن زياد لفتح الأندلس سنة ٩٢هـ بجيش مكون من اثني عشر ألف جندي وسبعمائة منهم تسعة آلاف من البربر، وكان طارق نفسه بربرياً، ومع ذلك فإن العرب كانوا يشعرون بأنهم فاتحو الأندلس، معتمدين على أنهم الجنس الأول الذي حمل راية الإسلام، والناس في هذا تبع لهم، كما أن القرآن نزل بلغتهم، ومن بينهم اختارالله محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - ، ومعتمدين - كذلك - على أن الطالعة الثانية التي أكملت الفتح سنة ٩٣هـ، وهي طالعة موسى ابن نصير، والتي تكونت من ثمانية عشر ألف جندي من العرب، كما أن طارق بن زياد قام بالفتح بأمر من الوالي موسى بن نصير، والخليفة الوليد بن عبد الملك، وهما عربيان!!

ومن هنا كان شعور العرب بأفضليتهم جامحاً، ولم يقف الأمر عند مستوى الشعور، بل سرعان ما تحول

الشعور إلى سلوك عملي، بل إلى ما يشبه القانون العرفي الذي يتعايش الناس في ظله على كره منهم، تحكمهم قوة الغالبين لا قوة المبادئ العادلة التي آمنوا بها ودخلوا في دينها مستبشرين بما عرفوه فيها من عدل ومساواة في الواجبات والحقوق!!

ولم تكد الجيوش الفاتحة تنتهي من الاستيلاء على الأندلس حتى آثر العرب أنفسهم بالنصيب الأوفر من الأرض الخصبة، فنزلوا الجهات الشرقية والجنوبية؛ حيث الخصب والدفء والخيرات الكثيرة، بينما أنزلوا البربر الجهات الوسطى والشمالية القاحلة الباردة التي تواجه الأعداء، فكان لهذا الظلم أثره فيما بعد في حدوث الخلاف بين العرب والبربر[1].

ولما انتهت سنوات الفتح (٩٢ - ٩٥ هـ) ومضى موسى ابن نصير قادماً على الوليد بن عبد الملك في دمشق،

(١) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس ص ٥٠.
نشر دار القلم ط ٢ / ١٩٦٤م القاهرة.

مخلفاً ابنه عبد العزيز الذي لم يدم حكمه إلا قليلاً (٩٥ - ٩٧هـ) تتابع على الحكم عدد من الولاة، زاد عددهم في هذه الفترة المبكرة المعروفة بعصر الولاة (٩٥ - ١٣٨هـ) عن عشرين والياً[1]، بعضهم ولّي غير مرة. . وكانت ولاية هذا العدد الكبير أثراً من آثار عدم الاستقرار الذي تسببت العنصرية في انتشاره منذ هذا العصر المبكر، سواء بين العرب والبربر أم بين العرب القحطانيين والعرب العدنانيين.

لقد كانت الأخوة الإسلامية التي صهرت جميع المسلمين في دولة المدينة المنورة، والشريعة الإسلامية القائمة على العدل والتي لا محاباة فيها ولا ظلم، هما الطريق الذي يحتاج إليه المجتمع الأندلسي، ولاسيما وأن هذا المجتمع يواجه أعداء دائمين متربصين به في الشمال خلف جبال البرتات، كما يواجه عناصر

(١) هذا إذا أخذنا فى الحساب أن بعضهم ولى أكثر من مرة ،أما إذا لم نأخذ ذلك فى حسابنا فعددهم ١٧ والياً .

اجتماعية متعددة لا يصلح لإيجاد كيان واحد منها إلا الإسلام القائم على الأخوة والشريعة .

وإذا كان أعداء الشمال في منطقة القلاع (قشتالة) وماوراءها كانوا يمثلون عدواً واضحاً متربصاً . . فإن الشتات الجنسي الذي تُركت بذور العداوة بين عناصره تنمو وتزدهر ـ كان يمثل مرضاً داخلياً يمتد في الجسم مثل السرطان ، وكان أكبر عون للعدو الخارجي على تحقيق أهدافه .

وللأسف فإن المسلمين لم يفطنوا إلى هذه الحقيقة ، ولم يضعوا الخطط التي تكفل المزج الاجتماعي السليم بين أهل البلاد الأصليين والوافدين من العرب ، والبربر ، والمغاربة من سكان شمال إفريقيا الأصليين القادمين مع الفتح أو بعيده ، والموالي المنسوبين إلى أقطار شرقية مختلفة ، فضلاً عن المستعربين من النصارى ، والمماليك والصقالبة الوافدين من بلاد غربية متعددة ، وهذه هي

أبرز العناصر التي يتكون منها المجتمع الأندلسي[1].

فأما أهل البلاد الأصليون: فهم المسمّون بـ (عجم الأندلس) وكانوا في أكثريتهم الغالبة من الأسبان وقد أطلق عليهم مصطلح المولدين، حيث كان آباؤهم عرباً وأمهاتهم أسباناً وقد اشتهر عدد من الأسر المولدية الكبيرة مثل: بني مردنيش، وبني غرسية، وبني ردلف، وبني أنجلين، وبني شبرقة وبني الجريج[2].

وأما الوافدون: فكان معهم العرب الآتون من المشرق وقد سمّي أوائلهم باسم (البلديين)، كما سمّي من جاءوا بعدهم باسم (الشاميين)، كذلك كان من الوافدين: البربر الآتون من شمال أفريقيا، والذين كان أوائلهم يؤلفون معظم جيش طارق بن زياد كما ذكرنا من قبل.

---

(1) د/ أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ٣٠ ـ ط ٧ القاهرة.

(2) انظر: ابن حيان: المقتبس ص ١٦، ٧٠، ٧١ الجزء الذي نشره منشور أنطونيا باريس ١٩٣٧.

وأما الموالي فقد أتوا في ركاب العرب؛ إذا كانوا مرتبطين بهم حتى عدّوا من القبائل التي تربطهم بها روابط الولاء.

وأما المماليك فكانوا يجلبون من المناطق السلافية في أوربا[1].

ويرى أستاذنا الدكتور أحمد هيكل: أنه على الرغم من تعدد العناصر على هذا النحو، فليس معنى ذلك أن المجتمع الأندلسي كان مجتمعاً مهلهلاً بسبب اختلاف عناصره البشرية، فالحق أنه بالرغم من تعدد العناصر بين سكان الأندلس، كانت الروابط القوية تشد بعضهم إلى بعض في أغلب الأحيان، وتطبعهم بالطابع الأندلسي المميز، فقد كانت هناك دائماً البيئة المشتركة والثقافة المشتركة، وقد كانت هناك غالباً الحكومة الموحدة والسياسة الموحدة، ثم كانت هناك بعد ذلك الحضارة

(١) الأدب الأندلسي: د/ أحمد هيكل. ص ٣٠.

الأندلسية الرائعة، التي صبغت جميع العناصر بصبغتها الواضحة[1].

بل إنه ليرى: أن أهم ما جعل الوحدة البشرية في المجتمع الأندلسي ذات قوة تفوق ما كان من تعدد الأصول: كون العنصر البشري - الذي يمثل أكثر سكان الأندلس الذي يُعتبر أبرز عناصر المجتمع - هو العنصر العربي الممتزج على مر السنين بالعنصر الأسباني والمؤلف من هذا الامتزاج مَن هم أجود سكان أسبانيا الإسلامية باسم الأندلسيين[2].

ومما لا شك فيه أن هذه العوامل هي التي حفظت المجتمع الأندلسي لعدد من القرون، وبها واجه التحديات، وقَدَّم إسهامات حضارية جيدة، وقد جعلته هذه العوامل يقف في وجه النصارى المتربصين به في الشمال في العهد الأموي، وفي فترات القوة التي

(١) الأدب الأندلسي - د/ أحمد هيكل - ص ٣١.
(٢) الأدب الأندلسي - د/ أحمد هيكل - ص ٣١.

وجدت أيام المرابطين والموحدين .

لكن هذه العوامل كانت تفقد فاعليتها بتدرج بطيء لا يكاد يشعر به إلا خبراء المجتمعات وفقهاء الحضارة، كما أنها تكاد تختفي حين لا يوجد الحاكم القوي العادل، وحين لا تحكم الشريعة . . . . إن المجتمع يفقد تماسكه وتعمد الطائفة القوية إلى إحكام سيطرتها بالقوة والسيطرة على الحكم!!

وقد كان هذا التركيب الاجتماعي المعقد في الأندلس بالإضافة إلى وجود الأقلية النصرانية في داخله، ودول النصارى في الشمال. . كان هذا كله يوجب الاحتكام الدائم للإسلام الذي يضمن الطاعة، والتماسك، والعدل، وهيمنة قيم الأخوة الإسلامية، بالإضافة إلى وجود حكومة قوية قادرة على إخضاع الجميع للشريعة العادلة، غير محابية لجنس، أو ظالمة لجنس آخر . . . .

لكننا نجد الأحداث تطورت في الأندلس بعيداً عن

هذه الضوابط إلا في فترات معروفة، فقد أصبحت العنصرية مرضاً يبرز بين الحين والآخر على نحو عملي في شكل ثورة هنا أو معركة هناك. . . بل كان من تأثير هذا المرض أن فقدت عوامل الوحدة جدواها في بعض الفترات، ودخلت الدولة الإسلامية في الأندلس في عهود كئيبة سميت بعصور الطوائف الأول والثاني. . بل إن عصر الولاة نفسه يشبه أن يكون عصر «طوائف»؛ فقد كانت هيمنة بني أمية في المشرق على الأندلس في هذه الحقبة . . شكلية!!

وكانت أمور الأندلس تدار بالغلبة، سواء كان هذا الغالب قحطانياً أم عدنانياً.

لكن هؤلاء العرب - بقحطانيهم وعدنانيهم - أو ولاتهم وقبائلهم، كانوا - إلا قليلاً - يحتقرون البرابرة لبداوتهم وتخلفهم، مع أن الإسلام ابتعثهم ليحضروهم ويعلموهم لا ليحتقروهم، وكان البربر يشعرون بأن حكامهم من العرب ينظرون إليهم بعين الاحتقار . .

وثمة واقعة كبيرة أغفلتها كتب تاريخية، لكنها ـ مع ذلك ـ تقدم مؤشراً خطيراً على الأثر السيىء للنزعة العنصرية التي ولدت مبكراً في الأندلس، مما يؤكد ما نذهب إليه من أن النفوس كانت مشْرَبة بهذه العنصرية، وأنها لم تجد سياسة عادلة تستلها من جذورها النفسية والاجتماعية وتصْهر العناصر كلها في بوتقة أهداف عليا وتخضعهم لقانون العدل والمساواة.

وتتلخص هذه الواقعة في أن أحد الولاة البربر المجاهدين، وهو يدعى (عثمان بن أبي نسعة الخثعمي) كان قد عيّن أميراً على الأندلس سنة ١١٠هـ، من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي والي المغرب، فلم تدم ولايته أكثر من ستة أشهر، ثم عزل وعيّن والياً للولاية الشمالية القريبة من ثغور سرقسطة « وكوڤادونجا » وجبل البرتات، فلم يكتف عثمان بحكم ولاية صغيرة، وأن يكون تحت إمرة حاكم الأندلس بعد أن حكم هو الأندلس كلها، وكان يفكر دائماً في الاستقلال، ولما

كان عثمان من البربر ، فلهذا فلم يكن يهتم كثيراً بأمر العرب والشاميين بل كان يحتقرهم ، مما يؤكد الميلاد المبكر لنزعات الصراع العنصري !!

ولما أراد عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس الهجوم على فرنسا والمرور على جبل البرتات ، كتب إلى عثمان يأمره بإرسال جيشه للمشاركة في هذا القتال ، فاعتذر عثمان ، واحتال في رفض أوامر الغافقي ، بل إنه ارتكب حماقة أكبر ، حين تجهز لمنع المسلمين من عبور البرتات ، فأرسل (الغافقي) كتيبة لقمع فتنة عثمان اللخمي ، فهزمه جيش الغافقي شر هزيمة ، وولى عثمان هارباً واختفى في مغارات البرتات ، فخرج قائد جيش المسلمين في إثره وأدركه فقتله .

لكن كيف وقع هذا التمرد في هذه الفترة المبكرة ؟

هنا يختلف المؤرخون كثيراً حول شخصية عثمان الخثعمي هذا ، وحول دوره المبكر في هذه الفتن التي ستستمر طويلاً في الأندلس بدوافع مختلفة أبرزها

العنصرية والشعوبية التي لم يُحسن العرب علاجها بالمساواة الإسلامية!!

إن المصادر الأجنبية تسمي (عثمان بن أبي نسعة الخثعمي) باسم آخر هو (منوزا) ولعله اختزال محرف لاسمه المركب (عثمان بن أبي نسعة) وهذه المصادر تؤكد أنه هو عثمان، بينما تتجاهل هذا التطابق أكثر المصادر العربية، باستثناء ابن عذارى المراكشي والمقريّ التلمساني [1]. وهذا التجاهل الذي ينتشر في أكثر المصادر العربية يفسره بعض المؤرخين بأن عثمان الخثعمي، ومنوزا شخصان مختلفان!!

وعلى أية حال، وبما أننا نميل إلى أن منوزا هو عثمان الخثعمي، ونرى في وروده عند ابن عذارى وتأكيد بعض

---

(١) انظر: ابن عذارى: ٢ / ٢٨ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢ / ٢٨ نشر دار الثقافة بيروت بتحقيق كولان وبروفنسال، والمقري نفح الطيب ١ / ٢٢٠ نشر دار صادر بيروت ١٩٦٨، ويرى ابن عذارى أنه عُزل وانصرف للقيروان.

المعاصرين لذلك دليلاً قوياً [1] . . . فإننا نرى في محاولة تعليل هذا السلوك - أن عثمان (منوزا) قد تأثر بالمناخ الذي كان مسيطراً في المناطق الشمالية التي كانت الروائح القوطية فيها مازالت قوية، وقد نجحت خطط دوق أوكيتانيا الذي كان يعيش في رعب من الزحف الإسلامي الذي كان يعدّ له في ذلك الوقت عبد الرحمن الغافقي . . . في استمالة منوزا، فزوجه ابنته تقرباً إليه، ولكي يكون عينا له على الغافقي وسداً في وجه زحفه، مستغلاً ماكان يعتلج في صدر منوزا من نوازع عنصرية ضد العرب الفاتحين الذين استأثروا بالسلطة، وكذلك تأثراً بإقالته من ولاية الأندلس بعد مدة وجيزة، وأيضاً بضعف إيمان عثمان نتيجة حداثة إسلامه، ولغلبة العوامل العنصرية على مشاعره وأفكاره، شأنه شأن

---

(١) انظر : رشدي فكار : في حوار الحاضر بالماضي عبر الأندلس . نشر مكتبة وهبة ص ٥٧ - القاهرة وانظر : إبراهيم بيضون . الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس ص٤١ نشر دار النهضة العربية - بيروت .

بعض الزعماء العرب الذين ظهروا في هذا العصر المضطرب.. عصر الولاة...!!

ولكل هذه العوامل كان عثمان مستعداً للزواج من ابنة دوق أكيتانيا والميل إليه، ولعله لم يشعر بأن هذا مخالف لدينه، وأنه مجرد موقف لحساب قومه البربر - الذين بدأت العنصرية تتحرك فيهم من جراء انفراد العرب بالسيادة، لمجرد أنهم عرب!!

وأياً كان الأمر، فقد ساءت العلاقة بين حكومة قرطبة وبين منوزا، نظراً لزواج هذا من ابنة دوق أكيتانيا المعادي للدولة الإسلامية الأندلسية، وتجاه ذلك أرسل عبد الرحمن الغافقي حملة لمقاتلته تمكنت من القضاء عليه وعلى جيشه بعد مقاومة شديدة ومطاردة طويلة، فقتل منوزا مدافعاً عن نفسه، وأسرت زوجته لاميجيا وأرسلت إلى دمشق فاستقبلها الخليفة هشام بن عبد الملك بحفاوة وزُوّجت هناك من إحدى الشخصيات العربية التي لا تفصح الروايات الأجنبية عنها.

ويعتبر عثمان الخثعمي (منوزا) ـ في رأينا ـ من رواد الفتن العنصرية من الجانب البربري، ونعتقد أن ثورته كانت ذات مردود اجتماعي سلبي بالنسبة للجماعة المسلمة ـ عرباً وبربراً ـ في الأندلس على السواء.

Δ Δ Δ

كان جديراً بالعناصر السكانية المسلمة التي تكون فيها المجتمع الأندلسي أن تنظر بعين ثاقبة للأخطار المحيطة بها؛ سواء من داخل البناء الاجتماعي نفسه، أم من خارجه، حيث يقف الشمال الأسباني، ومن خلفه أوربا، متربصين بهذا البناء. . . وقد كان في مبادئ الإسلام حين يُحتكم إليها ما يصهر المجتمع بشتى طبقاته، كما أن النظام الاجتماعي الإسلامي القائم على التكافل والرحمة، والنظام السياسي القائم على الشورى والعدل كانا كفيلين بالعبور بالمجتمع الأندلسي إلى شاطئ الاستقرار والإبداع والاستمرار في التقدم خلف

جبال البرانس (البرتات) . . . .

لكن احتكار العرب للسلطة من موقع التفوق العرقي وما سموه حق الفتح والغلبة جعل الطبقات الأخرى، ولاسيما طبقة المولدين أصحاب البلاد الأصليين، وطبقة البربر الشريكة في الفتح، والقريبة مكاناً وبيئة من الأندلس قبل الإسلام وبعده . . . جعل هذه الطبقات تشعر بالظلم، وتكون ـ دائماً ـ مهيأة للثورة ضد العرب، وبخاصة، وأن العرب ـ وهم يحكمون ـ كثيراً ما ابتعدوا عن أخوّة الإسلام، وتعاملوا باستعلاء عنصري.

على أن ذلك لا يعني تبرئة ساحة المولدين أو البربر تبرئة كاملة، فالحقيقة أن ميلهم إلى الخروج والثورة كان موجوداً بصورة مبالغ فيها في كثير من الظروف، وقد وقعوا في الأخطاء التي وقع فيها العرب في بعض الأوقات، وقد نشر بعض قادتهم الأحقاد ومبادئ الثورة، وهيأوهم للانقلابات والمظالم . . .

ولم يكد الخليفة الأموي الراشد العظيم عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) يلقى ربه، وتصعد روحه إلى بارئها حتى رجع والي المغرب (عبد الله بن الحبحاب)[1] إلى منهجه الظالم الذي كان يقلد فيه سياسة الحجاج بن يوسف الثقفي، فيفرض الجزية على البربر الذين يسلمون. . . كأن محمداً عليه الصلاة والسلام بعث إلى الناس جابياً ولم يبعث هادياً!!

وقد كان هذا ظلماً واضحاً ومخالفة كاملة لقواعد الإسلام. . . وبالتالي هيأت هذه السياسة - إلى جانب مظالم أخرى - البربر للثورة وقبول المبادئ الداعية إليها. . .

وبما أن الجنس البربري كان قد انداح في المغرب والأندلس، فإن من الطبيعي أن تتأثر الساحة المغربية الأندلسية كلها بما يقع في جناحيها. . أو عدْوتيها. . .

(١) انظر أبو بكر بن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٧ بتحقيق إسماعيل العربي - نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر.

المغربية والأندلسية.

وهكذا أدرك الخوارج الأرضية المغربية المهيأة لبذروهم، ووجدوا استجابة من البربر ليس حباً فيهم وتعاطفاً معهم، ولكن يأساً من عدل الولاة وخلفاء دمشق الأمويين.

ولهذا فعندما قام بربري يدعى ميسرة الزناتي المطغري يدعو للثورة على العرب تحت راية المذهب الإباضي الخارجي وجد من البربر استجابة كبيرة لدعوته.

وقد استطاع هذا الثائر أن ينتصر على العرب في عدد من المواقع، كان من أهمها معركة الأشراف التي وقعت سنة ١٢١هـ. والتي سميت بهذا الاسم لكثرة من قتل فيها من أشراف العرب[1].

وقد ساءت هذه المعركة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، كما ساءه هذا الإقبال الذي تلقته دعوة

(١) انظر عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس ص ٥٤ ط ٢ دار القلم مصر ١٩٦٤.

الخارجي ميسرة الزناتي، فأرسل جيشاً كبيراً ووالياً جديداً على إفريقية والأندلس لتأديب البربر والثائر ميسرة، دون أن يفكر الخليفة في الحل الأمثل وهو الاعتذار عن سياسة الوالي الظالم عبد الله بن الحبحاب، وإقناع الناس بأنهم سيحكمون بعدل الإسلام ومساواته.

وكان كلثوم بن عياض هو القائد الذي ولاه الخليفة هشام لهاتين المهمتين: قتال البربر، وولاية إفريقية، وبعث معه ثلاثين ألف فارس: عشرة آلاف من صلب بني أمية، وعشرين ألفاً من العرب، وعهد إليه في سد إفريقية وضبطها[1] كما عهد هشام - كذلك - في حالة حدوث حادث لكلثوم بن عياض أن يكون ابن أخي كلثوم بَلْج بن بشر مكانه[2].

---

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج٢ص٣٠.

(٢) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج٢ص٣٠.

وقد التقى كلثوم بن عياض وميسرة بموضع يقال له (بقْدورة) ويقال للموقعة (سبو)، فرأى ابن عياض وابن أخيه وولي عهده بلج بن بشر من شدة البربر أضعاف ما كانوا يتوقعونه، ولكثرة البربر صار بعضهم يقاتل الخيالة التي كان عليها بلج، وبعضهم يقاتل كلثوم بن عياض، وحاصروا بلجاً حتى حالوا بينه وبين الرجوع إلى عسكره، وصار في دبر عسكر البربر يقاتله طوائف منهم قد كاثروه، ومضى معظم الناس مع ميسرة حتى لصقوا بكلثوم فقتل حبيب بن أبي عبيدة القرشي، وقتل مغيث، وقتل هارون، وانهزمت خيل إفريقيا ورجالها[١] . . . ثم صرع كلثوم نفسه[٢]، بعد أن كان قد جرح جرحاً بالغاً[٣]، وقتل أصحابه وانقصفوا انقصافة قبيحة لا رجعة بعدها، وركب من ركب منهم منهزماً إلى

---

(١) مؤلف مجهول كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس، وذكر أمرائها ص ١١٢ بتحقيق إسماعيل العربي طبع الجزائر.

(٢) المكان السابق.

(٣) انظر عبد الحميد العبادي: المجمل ص ٥٥، ٥٦.

إفريقية، واتبعوهم يقتلونهم ويأسرونهم، ثلث الجيش مقتول، وثلث مهزوم، وثلث مأسور[1].

وقد لجأت كثير من الفلول المهزومة بقيادة ولي العهد بالإمارة بلج بن بشر إلى سبتة، وضاق عليهم الأمر ضيقاً عظيماً؛ فكاتب بلج وأصحابه عبد الملك بن قطن صاحب الأندلس، وممثل الحجازيين، وسأله إدخاله وإدخال من معه من الجند، وذكروا له ماصاروا إليه من الجهد، وأنهم قد أكلوا دوابهم، فأبى عبد الملك إدخالهم، ولم يأمنهم، ومطلهم بالميرة والسفن. واتفق أن تطاولت البربر أيضاً بالأندلس، وفاضحوا العرب، وظهروا على الساكنين منهم بجليقية وغيرها، فقتلوهم، وطردوهم.

فلما ورد فلّ العرب على عبد الملك بن قطن، ورأى عادية البربر، اضطر لأجل ذلك إلى إدخال بَلْج وأصحابه؛ فكاتبهم وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم

(١) أخبار مجموعة السابق ص ١١٣.

يخرجون عنها ؛ فرضوا بذلك ، فأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم وهي على الخضراء[1] .

وهكذا - كما ذكرنا - تنْداح مساحة التمرد والثورة بين العدوتين ، وتنتقل الأمراض الخبيثة بين المغرب والأندلس ، وتسيل الدماء بين المسلمين لأسباب عنصرية هنا وهناك ! !

فلما حلّ العرب الشاميون بالخضراء ، اجتمع بهم عبد الملك بن قطن ؛ وكان بشذونة جمع ثائر من البربر ، عليهم رجل زناتي منهم ، فبدأ عبد الملك بمقاتلتهم في وادي الفتح من شذونة « فلم يكن للغرب فيهم إلا نهضة ، حتى أبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم » [2] .

ثم نهض العرب جميعاً - حجازيهم الأصيل

---

(١) انظر أبو بكر بن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٩ وما بعدها ، وانظر : ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٣٠ .

(٢) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٢ ص ٣١ .

وشاميهم الوافد ـ خلف عبد الملك إلى قرطبة، ثم ساروا بأجمعهم إلى جهة طليطلة، وقد أجمع هنالك معظم البربر، فالتقوا بهم بوادي سليط من أحواز طليطلة، بعد أن زحف عبد الملك وبَلْج إليهم بعرب الأندلس، حاشا عرب سرقسطة وثغورها. وزحف البربر بأجمعهم، فهزمهم العرب، وقتلوا منهم في الهزيمة آلافاً[1].

وكان هذا الانتصار المحزن... بداية تآكل العرب فيما بينهم، بعد أن كانوا قد اتَّحدوا ـ مؤقتاً ـ ضد العدو المشترك... البربر!!

وقد تطورت الأحداث سريعاً إلى الصدام المحقق بعد أن أباد (ابن قطن) البربر بالأندلس، بمن كان معه من العرب، وبأصحاب (بلج) فقد قال عبد الملك لبلج وأصحابه الشاميين: «اخرجوا من الأندلس» فقال بلج: «احملنا على ساحل ألْبيرة أو ساحل تدمير!» فقال لهم عبد الملك: ليست لنا مراكب إلا بالجزيرة!» فقالوا له:

(1) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب ج ٢ ص ٣١.

«إنما تريد أن تردنا إلى البربر ليقتلونا في بلادهم (أي المغرب) »، فلما ألح عليهم في الخروج نهضوا إليه؛ فأخرجوه من قصر الحكم بقرطبة إلى داره بالمدينة، ودخل بلْج القصر (حاكماً منتصراً) عشية يوم الأربعاء في صدر ذي القعدة من سنة ١٢٣ هـ[1].

وبهذا وقع انقلاب داخلي في حكم الأندلس . . . فتولى الأمير المعيَّن من قبل خليفة المسلمين بدمشق إمارة الأندلس . . . وكان في الإمكان أن تستقر الأحوال، وأن تمتد سيطرة بلْج إلى المغرب مرة أخرى، بحكم أنه الوالي المعين من قبل الخلافة، وبحكم أن البربر قد انكسرت شوكتهم بعد أن أبيدوا أو كادوا في الأندلس، وبحكم الاتحاد الطارئ والجبري بين الحجازيين البلديين المهزومين في الأندلس، وبين الشاميين الطارئين المنتصرين بقيادة بلْج بن بشر الذي وصل إلى قصر الحكم !!

ولكن أمرين خطرين حالاً دون ذلك :

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٢ ص ٣١ .

أولهما:

أن خلافة دمشق لم يكن لها نفوذ في الأندلس بالقدر الكافي، كما أن سياستها لم تكن حكيمة عادلة بين العرب حجازيهم وشاميهم والبربر. . . .

ولقد أصبحت الأمور في المغرب والأندلس تدار - في الأغلب - وفق قواعد الغلبة المحلية للعناصر الطامحة المعتمدة على الطوائف العنصرية المحلية والتحالفات الطارئة.

أما الأمر الثاني: فهو ماكان متوقعاً؛ إذا أن الحجازيين الذين كانوا (البلديّين) السابقين الأكثر أصالة والتصاقاً بالأندلس ماكانوا ليقبلوا بهذه النتيجة، كما أن الشاميين لم تكن لديهم كياسة في استيعاب الأمور، ومحاولة الوصول إلى حلول قد ترضي الجميع، بحيث تتجه الأندلس إلى الاستقرار ومواجهة التحديات الخارجية والداخلية . . . بل سرعان ماهبّ جند بلج بن بشر يطلبون منه أن يعطيهم عبد الملك بن قطن حاكم الأندلس

السابق الذي سمح لهم بالعبور ليقتلوه، وكان ابن قطن شيخاً هرماً، قد بلغ التسعين؛ وكان قد حضر يوم الحرَّة، ومنها فر إلى إفريقية؛ وكان يومئذ بداره بقرطبة؛ فأخرجه الجند منها، كأنه فرخ نعامة من الكبر، وهم ينادونه: (أفلتَّ من سيوفنا يوم الحرّة !! ثم أردت إخراجنا إلى القتل !!) ثم قتلوه، وصلبوه، وصلبوا خنزيراً عن يمينه وكلباً عن شماله (!!)[1].

فهكذا كانت الأحقاد عميقة في النفوس بين العرب الحجازيين والشاميين !! وكان أمراً طبيعياً أن يثور أمية وقطنٌ ابنا عبد الملك بن قطن حاشدين الجيوش في جهة سرقسطة بعد أن هربا من قرطبة وقت إخراج أبيهما منها، طالبين بثأرهما، وهما في نيف على مائة ألف من العرب القدماء والحدث، فخرج إليهما بلج، وهو في أقل من خُمس عددهما؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزم

---

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٣٢.

ابنا عبد الملك ومن معهما هزيمة عظيمة؛ وانصرف أصحاب بلج ظافرين، وقد امتلأت أيديهم وأنفسهم غنماً ونصراً وسروراً، إلا أن بلج أميرهم كان متأثراً من جراح أصابته، ومات بعد أيام[1].

وقد انجلت المعركة عن أحد عشر ألف قتيل . . . وكان من الممكن حقن هذه الدماء لو تُرك ـ حياً ـ شخص واحد هو عبد الملك بن قطن الذي كان في التسعين من عمره (!!) لكنه الحقد العربي القبلي عندما يكون بعيداً عن الإسلام !!

وإنهم العرب عندما تتحكم فيهم عنصريتهم الجاهلية وتتفوق في نفوسهم على أخوة الإسلام . . !!

ويقدم لنا ابن عذارى المراكشي صورة زرية إضافية تعمق فينا الشعور بجوانب الحقدالعنصري بين العرب والعرب ـ وليس بين العرب والبربر أو العرب والمولدين

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٣٢.

فحسْب - فيذكر لنا أنه قد درج العرف في الحروب التي تنشأ بين قبائل العرب في الأندلس - قبل بلج بن بشر - أن لا يؤخذ النساء والأطفال أسرى (!!) لكن في هذه المعركة الأخيرة استباح عرب الشام سبي الذرية والنساء فأقبل بلج إلى قرطبة بعدد من السبي كثير، حتى نزل طرف المصارة من قرطبة، ومعه الأسرى والسبي من عرب البلد والبربر، وهو يبيع السبي في النداء، ويعبث ويبطر.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل زاد تأجُج العنصرية والانتقام الزريّ: « فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص لا ممن يزيد، وكان فيهم علي بن الحصين، والحارث بن أسد من أهل المدينة، فابتدأ المنادي عليهما بعشرة دنانير، فلم يزل ينادي: من ينقص؟ حتى باع أحدهما بعود والآخر بكلب !! »[1]

---

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٣٤.

وكان طبيعياً أمام هذا السلوك غير الإسلامي وغير الأخلاقي أن تعمّ الفوضى أنحاء الأندلس، وأن تعود الحرب كلما حانت الفرصة بين القحطانية والعدناينة، وأقامت الأندلس أربعة أشهر من غير والٍ[1].

ولما تفاقم الأمر، وكثر الاختلاف بين أهل الأندلس، تراضوا واتفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وعلى أن يدعوا ليحيى بن حُريث كورة ريّة؛ فتركت له طعمة.

فلما استقام الأمر ليوسف الفهري غَدر بيحيى بن حريث، وعزله من كورة رية، فغضب ابن حريث، وكاتب أبا الخطار كبير القحطانية المخلوع... فرفض أبو الخطار الكلبي الشاعر إجابته، ودعا بالإمارة لنفسه، فأصفقت يَمن الأندلس وحميرُها وكندتُها على تقديمه والطلوع له، وانحازت مضرَ وربيعة إلَى يوسف الفهري

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٣٥.

بقرطبة حضرة الملك. وأقبلا حتى نزلا شقندة[1].

وكان الصميل بن أبي حاتم كبير قبائل مضر[2] مع يوسف الفهري، وهو الذي سأله الناس أن ينظر لهم في وال يلي عليهم، لشغل أمير المؤمنين مروان بن محمد بالمشرق عنهم وبعده عنهم، فاختار لهم يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب[3].

ووقع اختلاف في أمره بين مضر واليمن، فانضوت

---

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٣٤.

(٢) الصميل بن أبي حاتم كبير مضر، كان يمتلئ عصبية عربية بغيضة، وقد أورد الأندلس بعصبيته موارد مهلكة، ومن شدة عصبيته أن أحدهم تلا أمامه قوله تعالى: ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ فأثاره ذلك وقال: (وتلك الأيام نداولها بين العرب) مستغرباً أن يشركه في الزعامة العبيد والسفال والأراذل (انظر ابن القوطية وغيره)، وانظر إبراهيم بيضون: الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس ص٢٧ وما بعدها، نشر النهضة العربية. بيروت.

(٣) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٣٦.

اليمن إلى أبي الخطار، من جميع البلاد والأقطار، وزحف بهم إلى يوسف الفهري بقرطبة؛ فنزل الصميل ابن حاتم بالمحلات، ومعه يوسف الفهري (وشك السلاح والآلات؛ وأقبل أبو الخطار بمن معه، ونزل موضعه، فالتقت بشقندة الفئتان، وتصادمت الفرقتان؛ فلا تسمع إلا صهيلاً وصليلاً، ولا ترى إلا قتيلاً، حتى تكسرت الخطية وتفللت المَشْرَفيّة، والتفت الساق بالساق، وانضمت الأعناق إلى الأعناق؛ فلم يعهد حرب مثلها في المسلمين، بعد حرب الجمل وصفين، إلى أن انهزمت اليمانية مع أبي الخطار بعد حين، وهرب أبو الخطار، وركب ظهر الفرار؛ واستقر في رحىً للصميل هنالك فظُفر به وقُتل إذ ذلك، فرأس الصميل ابن حاتم في الناس وشهر بالنجدة والبأس؛ وصرف يوسف الفهري إليه الأمور وأوقف عليه الرياسة والتدبير، فكان ليوسف الاسم وللصميل الرسم[1].

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٣٦.

وبعـد أن انتـهـت المعـركـة بكل ظلالهـا العنصـرية البغيضة، والبعيدة كل البعد عن روح الإسلام والأخوة الإسـلاميـة . . . بعـد هذا يقـدم لنا ابن عـذارى لوحـة عنصـرية إضـافيـة حتى تكتـمل بها الصـورة . . . في هذا العصر المبكر . . . فعندما أخذ العدنانيون أبا الخطار زعيم القـحطانيين وأرادوا قتله، قـال : « ليس عليّ فـوت !!، ولكن دونكم ابن السـوداء !! » يريد ابن حـريث . **فدلهم** عليه، وقتلا جميعاً . وكـان ابن حريث يقـول : « لو أن دماء أهل الشام سقيت . لشربتها في قدح » !![1]

فلـمـا استُخـرج من تحت الـرحى ليقـتل، قـال أبو الخطار : (يا بن **السوداء** !! هل بقي في قدحك شيء لم تشـربه؟) ثم قـتـلا . وأتي بالأسـرى؛ فـقـعـد لـهم الصميل . وضرب أعناقهم جميعاً . . .

ثم أتبع الله الأندلس بعد ذلك بالوباء والموت في

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ص ٣٧ .

السنة الثانية حتى كاد الخلق أن ينقرض منها [1]!!

وهكذا كانت المسيرة الأولى في رحلة العنصرية في الأندلس خلال هذا العصر المبكر . . . أي بعيد الفتح الأندلسي (٩٣هـ) بما لا يزيد عن عقد من الزمان . . . والذي استمر حتى قيام الدولة الأموية (١٣٨هـ) على يد ذلك المغامر العجيب عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش .

لقد سمي هذا العصر (٩٣ - ١٣٨هـ) بعصر الولاة، وبسبب ظاهرة العنصرية الخبيثة المسيطرة يصح لنا أن نسمي هذا العصر (عصر الفتن والاضطرابات الأول في الأندلس) . . . لقد تتابع على الحكم أمراء كثيرون بعضهم أرسلته دولة الخلافة مباشرة أو تولى بواسطة واليها في مصر أو المغرب، وأكثرهم كان يتولى بقانون العشائرية والقوة الغالبة . . . وقد حكم بعضهم

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٣٧ .

مرتين . . . ولم ير النصارى في هذا العصر من المسلمين أي قوة تجعلهم يحترمونهم، كما لم يروا في هذه السلوكيات العشائرية الصورة الكريمة التي عرفوها في مبادئ الإسلام، فكان إسلام من أسلم من بتأثير الدعاة والمحايدين وعوام الأمة؛ وقد اشتغل غير المسلمين بالتجارة وتحصيل المعرفة، وتقدموا في هذين المجالين الخطيرين: العلوم. . والاقتصاد. . بينما انشغل المسلمون بالحروب العنصرية، وانشغل كبار العرب ومن وراءهم بأمور الزعامة والسيادة. . وفي البداية، وتحت راية عدد من الولاة المخلصين الصادقين مثل عنبسة بن سحيم الكلبي والسمح بن مالك الخولاني وعبد الرحمن الغافقي تقدمت الجيوش الإسلامية إلى قلب فرنسا، إلا أن بداية الحرب العنصرية المشئومة في الأندلس في هذا العصر المضطرب صرفتهم بعد زمن يسير عن متابعة الفتح.

بل إن نصارى فرنسا الذين كانت قلوبهم وجلة

مضطربة من المسلمين قد وجدوا الفرصة سانحة خلال هذه الاضطرابات العنصرية - في عصر الولاة - للتفكير الجاد في القضاء على الحكم الإسلامي الذي رأوا أهله في هذه الصورة المشوهة !!

ولعله من هذه البداية الأندلسية الأسيفة بدأ التفكير الجدّي في حروب الاسترداد . . .

بل إن الحملات التي قادها بعض المخلصين لفتح ما وراء البرانس انقلبت آثارها في ظل هذا الوضع المتردي الداخلي للأندلس - أسهمت في التنبيه على خطر المسلمين - مما أسهم في توحيد الدولة الكارولنجية التي كانت قد انطوت على كثير من صور التمزق الإقطاعي !!

(وقد ساعد الفرنجة في تقدمهم أن البربر الذين روعتهم المذابح ولاسيما بعد معركة وادي سليط (١٢٤هـ) أخذوا يتركون أراضيهم وخاصة في الوسط والشمال الغربي ويعودون إلى إفريقية ، وكان لهذه الهجرة الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام في

الأندلس، فإن ألوفاً كثيرة من هؤلاء المسلمين الذين كان ينتظر أن يعمروا بالإسلام كل نواحي شبه الجزيرة، هاجروا وتركوا كل الأراضي الواقعة شمال نهر تاجة خالية تقريباً من المسلمين، فأصبحت هذه النواحي ابتداء من النصف الثاني للقرن الثامن الميلادي أراضي خلاء مفتوحة لنصارى الشمال ليمتدوا فيها كيفما يشاءون، وسيعمر النصارى جزءاً كبيراً منها خلال القرن التاسع الميلادي ويصبح حوض الدويرة أرضاً نصرانية، لقد خسر المسلمون نتيجة لاختلاف بعضهم مع بعض ربع شبه الجزيرة، خسروه دون أن يخرجهم منه عدو، وإنما أخرجهم منه كراهة بعضهم لبعض وقلة نظرهم إلى العواقب) [1].

ومع هذه الآثار الوخيمة فإن رحمة الله وعنايته تدخلتا لإنقاذ جهود الفاتحين المخلصين من أمثال طارق

(١) انظر معالم تاريخ المغرب والأندلس د / حسين مؤنس ص ٢٤٥، وانظر بيضون : الأمراء والشعراء - مرجع سابق ص ٤٨ , ٤٩ .

ابن زياد وموسى بن نصير ومغيث الرومي . .

فقامت الدولة الأموية في الأندلس بطريقة تشبه أن تكون أسطورية . . . إلا أنها حقيقة ملموسة من حقائق التاريخ الناصعة ! !

Δ Δ Δ

العنصرية في العصر الأموي بالأندلس.

في أول أمره أرسل عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل، مولاه بدراً إلى الصُّمَيِّل بن أبي حاتم كبير مضر، ليساعدوه على إقامة دولته الأموية النازحة إلى الأندلس إلا أن الصميل ـ الذي يشترك مع عبد الرحمن الداخل في العنصر القبلي المسيطر على عقله ـ رفض مساعدة الداخل على ذلك حرصاً على نفوذه الشخصي ومكانته القبلية والسياسية في الأندلس...

وبالتالي وجد عبد الرحمن الداخل نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى القحطانيين والذين ينافسون المضريين، وقد وجد اليمنيون القحطانيون في هذا العرض فرصة ذهبية للثأر من خصومهم ولتصدر الأندلس خلف قيادة أموية ذات رصيد تاريخي معروف.

وبهذه المعادلة الرائعة التي يقود فيها زعيم مضري قبائل يمنية لتأسيس دولة كان من الممكن أن تفقد القبلية العنصرية كثيراً من رصيدها!!

والحق أننا نلمس اختفاءً وكموناً للعنصرية أمام شخصية عبد الرحمن الداخل رجل الدولة، بل إن كثيراً من معاركه التالية كانت ضد الصميِّل بن حاتم القيسي ويوسف الفهري اليمني وبعض المحيطين به، ومنهم بعض الطامحين والمنافسين له من عائلته الأموية نفسها. . ومن مواليه. . . !! ولهذا لا نجد أنفسنا مبالغين حينما نقول إنّ أشباح العنصرية قد اختفت إلى حد كبير، وأصبحت المعارك تتجه لفرض هيبة الدولة التي يجب أن يفرضها بنو أمية على الخارجين عليها، بصرف النظر عن كونهم يمنيين أو شاميين، أو كونهم بربراً أو مولدين.

وقد نجح عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢هـ) في سياسته تلك إلى حد بعيد، وبدأت الطبقات الأندلسية تنصهر في عنصري الإسلام وحضارته وبني أمية ودولتهم المهيبة.

وقد سار هشام بن عبد الرحمن الداخل الملقب

بهشام الرضا (١٧٢ - ١٨٠هـ) على سياسة أبيه الراشدة، ولاسيما وأنه أضاف إلى سياسة أبيه طابعاً إسلامياً وتسامحياً أعمق تمكن من تطبيقه بفضل وراثته لدولة مستقرة مهدها له أبوه بسياسته وسيفه بعده، ومن هنا أحبت الأمة الأندلسية (هشام الرضا) ووقفت معه عن اقتناع كبير ضد أطماع أخويه في الحكم، وضد التحديات الخارجية ومنحته لقب (الرضا) الذي اقترن باسمه تقديراً لسياسته الحكيمة.

على أن ذلك لا يعني خلوّ الأندلس من بعض النشاز، لكن هذا النشاز كان خروجاً (استثنائيا) لا يخلّ بالقاعدة، وهو يجري مجرى سنن الله في الاختلاف، التي تتحملها المجتمعات القوية، كما يتحمل الجسم القوي بعض الميكروبات الهزيلة . . .

ففي سنة ١٧٨هـ هاجت الفتنة بتاكرنا، وخالف بربرها، وتماروا على الناس، وقتلوا وسبوا، فبعث الإمام هشام إليهم الأجناد بعد الإعذار إليهم؛ فقتل

أكثرهم، وفرّ سائرهم إلى طُلَيْطِلَة وترجيلة، وأقامت تاكرنا، وهي إقليم، وبلادها خالية قفراً سبع سنين[1].

ولكن النسيج العام - كما ذكرنا - كان قوياً - متماسكاً بفضل سياسة هشام الرضا الحكيمة والقوية!!

Δ Δ Δ

لكن الحكم بن هشام الذي سيلقب بعد ذلك بالحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦هـ) لم يكن في ورع أبيه ولا حكمته، فقد بدأت الدولة الأندلسية تتألق قدرتها ووحدتها وتزدهر حضارتها، فمال الحكم إلى جني الثمار، وبدأ يعيش حياة المترفين، ويعمد إلى سياسة القوة والميل إلى العنصر العربي بصفة عامة.

وكان هو نفسه شاباً ميالاً للمتع والراحات، وقد

---

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٦٤.

حسب أن أباه وجده قد مهدا له الملك، وماعليه إلا أن يستمتع، ونبض فيه عرق التعالي الأموي، ونظر إلى من سواه من الناس في غير اكتراث، واستخف بأهل قرطبة ورجالاتهم وأهان الكثيرين منهم، وأهمل جانب الفقهاء، الذين بلغوا مكانة كبرى في أيام أبيه هشام، واكتفى بخدمه وحواشيه وندمائه.

وعندما تختفي معادلة العدل الإسلامي تظهر معادلات أخرى، ومنها العنصرية، يتكئ عليها الحكام ومساعدوهم!!

وقد جرّت تلك السياسة عليه غضب المتدينين من الدعاة العرب والبربر على السواء، هؤلاء الذين يعيشون بقيم الإسلام ولقيم الإسلام، والذين لا تكاد تصل إليهم عين المؤرخ الذي يقف عند حدود الحواجز السياسية الظاهرة!!

كما أن الحكم خسر أيضاً ذلك العنصر الجديد ـ الذي أصبح بعد مرور أكثر من قرن على فتح الأندلس ـ العنصر

الغالب والمتطلع لقيادة الأندلس والمؤهل لذلك - عند الإنصاف - تأهيلاً كبيراً، فهذا العنصر الجديد المسلم الغالب (الأسالمة) أو (المولدون) ينتمي إلى الأصالة العربية ؛ إذ هم من آباء عرب يحملون الدم العربي، لكنهم من أمهات غير عربيات، كما أنهم ينتمون إلى الأرض الأندلسية، ويعتنقون الإسلام الصحيح الكريم الذي نزل على محمد ﷺ، والذي لم تشبه شائبة الإسقاط العنصري، كما أنهم الأكثر علماً وفناً وزراعة وصناعة، وليسوا كالعرب الذين يصرفون همهم في التسابق على مناصب الرئاسة والزعامة، معتمدين في ذلك على مجدهم العربي والقبلي الموروث ! !

إن هؤلاء المولدين ينظر إليهم على أنهم المجموعة الثالثة من حيث الأهمية والتصنيف الاجتماعي يأتي بعد العرب والبربر مع أنهم المجوعة الأولى التي تشكل على الرغم من تصنيفها السالف الذكر القوة العددية الطاغية، فضلاً عن تأثيرها، ربما البطيء، في البناء الحضاري،

على نحو أعطى لهؤلاء دوراً، فاق الدور الذي شغله البربر في هذا المجال.[1].

وكما ألمعنا فإن هؤلاء المولدين في الأصل كانوا يمثلون الجيل الثاني من الأسبان حيث عرف الجيل الأول منها باسم (الأسالمة)، ثم تطور مفهوم هذه الكلمة وأخذت تعني اصطلاحاً أولئك الذين نشأوا من تزاوج العرب بالنساء البربريات أو الأسبانيات أو الصقليات حيث « خرج من هذا الازدواج جيل جديد مولد» ظل محتفظاً بهذه التسمية حتى القرن الثالث الهجري الذي شهد تحولاً اجتماعياً بارزاً نيتجة هذا التخالط بين الفئات المختلفة[2].

ولكن الحكم بن هشام عجز عن استيعاب هذه الوضعية الاجتماعية الجديدة وتوظيفها لخدمة الدولة والحضارة، ومال إلى الحلول العنيفة المعتمدة في نجاحها

(١) بيضون: الأمراء الأمويون الشعراء ص ٥٤.
(٢) بيضون: الأمراء الأمويون الشعراء ص ٥٥.

على العنصر العربي بالدرجة الأولى، وعلى السيف بالدرجة الثانية!!

لقد بدأت المعادلة منذ الحكم الربضي تختل في يد بني أمية، فتغلبت مصلحة الدولة على مصلحة الدعوة والحضارة، كما بدأ ميل عرقي يستخدم العنصر العربي، ليس لإطفاء الجذوة العرقية وتذويب أجناس الأمة في الوشيجة الإسلامية، كما كان السلف من العرب الفاتحين، وإنما لفرض هيبة الدولة بالقوة على حساب الانسجام الاجتماعي والأخوة الإسلامية القائمة على المساواة والعدل. . . !!

وكان من نتيجة سياسة الحكم، واختلال ميزان العدل، ويقظة العنصرية والشعور بالظلم أن وقعت في عهده مذبحتان كبيرتان:

إحداهما لأهل طليطلة، يتحمل كبرها - بعد الحكم - الوالي عمروس بن يوسف[1] وولي العهد عبد الرحمن

(١) عبد المجيد نعنعي: الإسلام في طليطلة ص ٣٢ نشر دار النهضة =

ابن الحكم، وهي آية من آيات الغـدر الذي لا يقـبله الإسلام ولا الشيم العربية، وكان الأمر أشبه بمسرحية هزلية قامت في مخططها على استغلال زيارة مدبرة من ولي العهد للمدينة، يرافقها طعام يقام على شرفه يدعى له علية طليطلة.

فيدخلون من باب . . . ثم يخرجون من باب (!!) ومع طرق الطبول بشدة حفاوةً بولي العهد، وبين الدخول والخروج كان الضيوف يُذبحون وتلقى أجسادهم في الحفر فرداً فرداً . .

ويصور أبو بكر بن القوطية هذه المهزلة التاريخية المجافية لكل أخلاق الإسلام في قوله الوجيز: « وكان في عهده - أي الحكم - إلى عمروس إذا بنى القصبة أن يكون لها بابان، فسأل القوم (الولد)، ذلك فتعاصى ثم أجابهم فرحل إلى المدينة، ودخلها وصار في القصبة، ثم أمر بأن يحضر ما يقوم به الصنيع في اليوم التالي،

= العربية بيروت.

وأمر بإحضار وجوه أهل طليطلة في الحاضرة والبادية فحضروا وأمر بالدخول من باب وصرفت دوابهم إلى الباب الثاني ليخرجوا منه ووقف السيافون على شفير حفرة فكل من دخل ضربت رقبته حتى أتى القتل على خمسة آلاف وثلاثمائة ونيّف، وأثبت عبد الرحمن بصره في السيف فلم تزل به غمزة في عينيه إلى أن مات[1].

لكن بعضهم يرى أنه في هذا اليوم المشئوم من أيام سنة (٧٩٧م)(١٨١هـ) ذُبح سبعمائة رجل فقط من مقدمي المدينة[2] وما تزال هذه المذبحة معروفة حتى اليوم باسم «حفرة عمروس»!!

أما المذبحة الثانية فهي أكثر بشاعة وأعمق أثراً، وقد وقعت في العاصمة قرطبة، من جراء الشعور بالظلم والدونية والكراهية لسياسة الحكم وأخلاقه الشخصية،

---

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص ٥٠.

(٢) عبد المجيد نعنعي: الإسلام في طليطلة ص ٣٣.

وتحريض الدعاة وعلماء الإسلام الناس عليه وتشنيعهم به . . وقد استجاب لهم سكان حي الربض . . (أي حي الفقراء والعمال والحرفيين الواقع على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير . . .) .

ومع أنه لا يمكن الزعم بأن الثائرين لا يتحملون جزءاً من المسئولية [1] إلا أن رد الفعل العنيف الخالي من كل رحمة ، الممتد إلى الأطفال والنساء والشيوخ ، عن طريق إحراق البيوت والقتل والإغرق[2] أمرٌ لا يمكن تبريره ، لقد أشعل الجنود النار في الربض ، وعندما رأى الثوار النار مشتعلة في ديارهم ومتاجرهم ، عادوا مهرولين بدون نظام لإنقاذ ذويهم وأموالهم ، وهنا حانت الفرصة لجيوش الحكم فأوقعت الثوار بين نارين وأحاطت بهم من كل جانب وأعملت فيهم السيوف

---

(١) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٦ وانظر بيضون : الأمراء الأمويون الشعراء ص ٨٩ .

(٢) انظر : مجهول : أخبار مجموعة ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ومابعدها .

حتى قتلت منهم خلقاً كبيراً وقد كان في هذا القدر كفاية!! لكن الحكم أمر بعد أن انتهت المقاومة، بهدم الربض وحرث أرضه وزراعتها كما أمر من تبقى من الربضيين بترك البلاد في الحال.. أي التدمير الكامل للحي والطرد الجماعي لسكان البلاد الأصليين!!

وقد اضطر عدد كبير من الربضيين إلى مغادرة **الأندلس عقب فشل ثورتهم**، فعبر بعضهم المضيق إلى العدوة المغربية حيث استقروا بين قبائل البربر في جبال الريف شمالي المغرب[1].

أما الفريق الآخر من الربضيين الذين غادروا بلادهم، فقد واصلوا السير في البحر شرقاً حتى بلغوا شواطئ الإسكندرية فنزلوا في ضواحيها في أوائل عصر الخليفة العباسي المأمون سنة ٢٠٠هـ[2].

---

(١) د/ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس: ص١٢٣.

(٢) العبادي: المرجع السابق ص ٢٥.

وقد كان من آثار هذه السياسة العنصرية العنيفة للحكم الربضي أن اندفع الكارولنجيون إلى تصعيد وتيرة الهجوم المضاد، مستفيدين من تراجع الخطر الأموي وراء البريئية، وضعف دفاعهم على التخوم، وتحقيق السيطرة على الثغر الهام برشلونة [1].

وقد بقي ثغر برشلونة، في يد النصارى، ولم يسترده المسلمون بعد ذلك قط!!

كما أن مدينة طليطلة العاصمة القديمة للقوط والتي شعرت بانكسار كبير من جراء مذبحة عمروس والحكم الربضي، تعمقت لديها كراهة الخلافة الأموية وأصبحت مستعدة - كلما سنحت الفرصة - للثورة على العرب وعلى بني أمية . . . وتاريخها الإسلامي شاهد على ذلك . . .

وقد انتهى بها الأمر - نتيجة المظالم التي لحقت بها والعنصرية التي حكمتها - أن أصبحت أول مدينة إسلامية

(١) بيضون: الأمراء الأمويون الشعراء ص ٨٨.

أندلسية تخرج من حوزة المسلمين وتقع في أيدي النصارى.

ولقد بذل عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) (٨٢٢ - ٨٥٢م) المعروف (بعبد الرحمن الأوسط) جهده في تحسين الأوضاع، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير، وساعدته ظروف التطور المادي في الأندلس[١]...

لكن مع ذلك بقيت بعض الثورات ذات الطابع العنصري تظهر بين الحين والحين، ففي سنة ٢٠٧ ثارت بتدمير فتنة بين مضر ويمن، ودامت سبع سنين، فأرسل إليهم الأمير عبد الرحمن بن الحكم يحيى بن عبد الله بن خلف، ثم كان يبعث إليهم المرة بعد المرة بالقواد، فيفترقون؛ فإذا قفلوا، عادوا إلى الفتنة، وكانت بينهم وبين يحيى بن عبد الله وقيعة تعرف بوقعة «المصادرة» بلورقة انتهى مبلغ القتلى فيها

(١) انظر بيضون: المرجع السابق ص ٤٦.

إلى ثلاثة آلاف[1]!!

وهذا في مستوى الصراع بين القبائل العربية، أما بين العرب والبربر، فقد وقعت بعض الاشتباكات، ومنها ما وقع في سنة ٢٣٦هـ عندما ثار رجل من البربر يقال له حبيب البُرنُس، بجبال الجزيرة، واجتمع إليه جماعة من أهل الشر والفساد، فأخرج إليه عبد الرحمن الأوسط الأجناد، فلما وصلوا إليه، ألفَوا البربر قد وصلوا حبيباً ومن اجتمع إليه، فتغلبوا على المعقل الذي كان انضوى إليه، وأخرجوه عنه، وقتلوا عدة كبيرة من أصحابه، وافترق بقيتهم عنه[2].

ومع ذلك فحوادث الصراع العنصري قليلة في عهد عبد الرحمن، الذي كان قد استفاد فائدة كبيرة من سياسة

---

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٨١.

(٢) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج٢ ص ٨٩، ٩٠.

أبيه الظالمة، وأبصر بعينه عواقبها!!

وقد حفل عهد الطوائف الأول (٢٣٨ - ٣٠٠ هـ) بعديد من الثورات العنصرية بين أبرز الطوائف الموجودة في الأندلس، وعلى رأسها العرب والمولدون والبربر.

ولقد تميز هذا العهد بشيء من الابتعاد عن الإسلام، إذا ظهرت فيه صور التحلل والترف، وارتفع فيه شأن الغناء والموسيقى، وما يتبعها من محرمات وإهدار لطاقة الأمة.

وقد انتظمت هذه الصور العهد كله، بخلفائه الثلاثة: محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣هـ) (٨٥٢ - ٨٨٦م) وابنه المنذر (٢٧٣ - ٢٧٥هـ) (٨٨٦ - ٨٨٨م)، وعبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) (٨٨٨ - ٩١٢م).

ففي فترة حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن قامت ثورات عبد الرحمن بن مروان الجليقي في شمال غرب

الأندلس، خاصة بطليوس[1] سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) متخذا من قلعة الحنش جنوب ماروة مقراً له.

وقد تحالف زعيمها الجليقي مع نصارى الشمال الجليقيين الذين أمدوه بالمساعدات المعنوية والعسكرية[2].

وقد انضم إلى هذه الثورة المولدية (العنصرية) عدد آخر من المولدين منهم: ابن شاكر، ومكحول بن عمر، وسعدون بن فتح وغيرهم[3].

وقد اشتعلت هذه الثورات الجليقية المولدية في ماردة سنة ٢٦١هـ ثم في سنة ٢٧١هـ واعتبرت هذه الثورات تعضيداً لثورة بني قسيّ المولدين التي اشتعلت في الثغر

(١) انظر أحمد مختار عبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٥٧ نشر دار النهضة العربية ١٩٨٨.

(٢) انظر الدكتور / عبد الرحمن الحجي: أندلسيات: المجموعة الثانية ص ١١٦ دار الإرشاد بيروت ط١ - ١٣٨٩هـ.

(٣) الحجي: المرجع السابق ٢ / ١١٧.

الأعلى وحاضرته سرقسطة[1].

وكان من أبرز أفراد بني قسيّ الذي شقوا عصى الطاعة في هذا العصر موسى بن فرتون الذي قام ضد عبد الرحمن الأوسط، واستمر عصيانه متقطعاً مع أولاده طيلة عصر الطوائف الأول[2].

وقد ظلت تلك الثورات تطفو ثم تخبو بتأثير الحملات العسكرية التي كانت توجه لإخمادها، وذلك في سنوات ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٧٠هـ وغيرها.

وبصورة عامة شهد عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٢هـ) عدداً كبيراً من الثورات التي قام بها المولدون والمستعربون في طليطلة والثغر الأعلى والغرب الأندلسي، كما شهد عصره اضطرابات داخلية، قام بها المستعربون والمولدون في الجنوب الأندلسي في عام ٢٦٥، ٢٦٦ للهجرة.

---

(١) انظر العبادي: المرجع السابق ص١٥٧.
(٢) انظر: الحجي: ٢ ص ١١١.

كـمـا أن الزعـمـاء الطامـحين من العـرب حـاولوا الاستقلال عن بني أمية في قرطبة وتعاملوا مع المدن التي كانوا ولاة فيها على أنهم ملوك مستقلون!!

ومن هؤلاء بنو حجاج في أشبيلية، وكانوا عرباً من قبيلة لخم اليمنية، وسعيد بن جودي السعدي الذي استقل بغرناطة، وكان عدواً لعمر بن حفصون وأتباعه المولدين، وله معهم وقائع حربية كبيرة.

وكان من الطبيعي أن لا يسكت الأمير محمد بن عبد الرحمن على هذه الثورات، مولدية كانت أو عربية، وبالتالي فقد سارت جيوشه إلى الثائرين لإخضاعهم وذهبت كذلك إلى بعض المعتدين من المسيحين المتاخمين لرد عدوانهم[1].

على أن أيام هذا الأمير قد شاهدت ميلاد خطر جديد كلف الإمارة الأندلسية كثيراً من الجهد والرجال

---

(١) د/ هيكل/ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. دار المعارف ص ١١٧.

والأموال، وظل شوكة في جانب الحكومة القرطبية حتى أوائل الفترة التالية، هذا الخطر الجديد، هو عمر بن حفصون الذي اعتصم بجبل بوبشتر، هو وكثير من المتمردين الأسبان الثائرين على حكومة قرطبة، وأخذ يعتدي على بعض الأقاليم القريبة من حصنه في الجنوب، ويشيع كثيراً من الفزع، ثم مات الأمير محمد وخطر ابن حفصون من الأخطار التي تصارعها الإمارة ولا تكاد تنتصر عليها.

وكان المنذر بن محمد من كبار قواد أبيه، فخلف أباه في إمارة قرطبة، ووضع نصب عينيه القضاء على ابن حفصون، إلا أن المنية أسرعت إليه قبل أن يحقق غايته، ويقال إنه مات في أثناء محاربته لهذا الثائر الخطر.

وخلف المنذر أخوه عبدالله، وكانت الإمارة قد أنهكها الصراع، وتصالحت عليها كثير من الأحداث، التي كان في مقدمتها في عهد الأمير عبد الله، بروز الحركة العنصرية، التي كان مظهرها تكتل العرب في

بعض المناطق تحت قيادة زعيم منهم للوقوف في وجه المولدين، الذين يتكتلون بدورهم تحت إمرة ثائر منهم للوقوف في وجه العرب، وقد كانت إشبيلية وطليطلة وغرناطة من مراكز هذه الحركة[1].

وقد أظهرت القبائل العربية من جانبها تعصباً عنصرياً ضد البربر والمولدين، وقد عرف من زعماء العرب العنصريين في (ألبيرة) يحيى بن صقالة القيسيّ، ثم ظهر بعده سوار بن حمدون القيسيّ.

وقد ظن الأمير عبد الله ـ وكان آثماً في ظنه ـ أن مصلحته أن يلعب على أوتار العنصرية، فشجع العداء بين العصبية العربية في غرناطة وألبيرة، وعصبية المولدين فلما اشتكى المولدون إلى ا لأمير عبد الله ما يلاقونه من ظلم العرب لم يفعل شيئاً، وقد نشب صراع عنيف بين العرب والمولدين سنة ٢٧٦هـ أسفر عن هزيمة المولدين

---

(١) د/ هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ١١٣ - ١١٩.

هزيمة نكراء، وقتل عدد كبير منهم يقدر بنحو اثني عشر ألف رجل من المستغربين والمولدين، ويتحمل وزر هذه الدماء سوار بن حمدون القيسيّ العنصري الذي كان يمتلئ حقداً على المولدين!!

وقد أحدثت هذه النكبة رد فعل مولدي عنيف تمثل في تجمع المولدين بأعداد كبيرة حول الثائر المولدي المنحرف عمر بن حفصون سنة ٢٧٧هـ[1].

وعلى الرغم من انتصار العرب على هذه الأعداد الكبيرة سنة ٢٧٧هـ إلا أن الدم لا يلد إلا الدم، والحقد لا يورث إلا الحقد، وبالتالي فقد تلقى العرب ضربات قوية كثيرة موجعة من عمر بن حفصون على امتداد السنوات التالية التي انتظمت عهد الأمير عبد الله، بحيث أصبح عمر بن حفصون ورجاله خطراً كبيراً على الخلافة نفسها، فضلاً عن أن القبائل العربية التي شعرت بقوتها أمام المولدين فقدت احترامها للدولة فتعاملت وكأنها

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ٢ / ١٣٤.

القوة الضاربة في الأندلس لدرجة أن سعيد بن جودي الذي خلف سوار بن حمدون[1] كان يتعامل وكأنه رئيس دولة مستقلة لا تربطها بقرطبة أية رابطة؛ ولهذا فنحن لا نستبعد ما يقال عن أن مقتله سنة ٢٨٤هـ على يد بعض أتباعه كان بتحريض من الأمير عبد الله نفسه[2].

وفي إشبيلية التي تمتزج فيها العناصر العربية والمولدية والمستعربة كانت الفتن فيها قوية تهدد وجود الدولة الأموية، فقد « ثار العرب بإشبيلية ثورة، وقبضوا على عاملها عنوة، وانتهبوا طارفه ومتلده، ولم يتركوا إلا أهله وولده، وقتلوا كثيراً من أعوانه وعاثوا ماشاءوا في سلطانه، فاجتمعت العساكر من قرمونة وسائر الأقطار، وأحاطت بإشبيلية إحاطة الفلك بالدوار، فغلبوا على القائمين فيها، وقتلوا منهم فرقة، فكانت

(١) المكان السابق.

(٢) د/ أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ١١٨، ١١٩.

الوقعة المعروفة بالدعقة »[1].

وهكذا كان عهد ملوك الطوائف الأول حافلاً بالفتن العنصرية والطائفية القاتلة.

ولكن الحال تبدل في عهد الخلافة؛ فقد استطاع عبد الرحمن الثالث أن يعيد إلى الشعب الأندلسي وحدته، فقضى على الزعامات التي كان يتكتل وراءها من ينتمون إلى العرب من أبناء الأندلس، وقضى كذلك على الزعامات الأسبانية التي كانت معقد أمل الخارجين على النظام من مسلمي الأسبان المعروفين بالمولدين، كذلك أراح الأندلس من الزعامات البربرية التي كانت تثور بسكان الأندلس من أهل شمال إفريقيا، وتستقل ببعض الأقاليم الأندلسية.

وقد رأت العناصر المكونة للشعب الأندلسي، أن الخير كل الخير في ترك العنصرية جانباً، فاندمجوا في المجتمع الأندلسي الكبير اندماجاً توحد معه هذا

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٤، ١٣٥.

المجتمع . . . واختفت منه ـ أو كادت ـ تلك العنصرية المختلفة، من عربية وأسبانية وبربرية .

كما أدت سياسة الناصر الحكيمة وانتصاراته الباهرة إلى انتشار الطمأنينة وإقبال الناس على أعمالهم في جدٍّ ونشاط وأمل، كما أنتج هذا جميعه ارتفاعاً في مستوى المعيشة، ورخاء للدولة والأفراد جميعاً [1] .

وقد ورث الحكم بن المستنصر خلافة إسلامية قوية ممهدة (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) فسارت الأمور سيرتها في عهد أبيه عبد الرحمن الناصر، وبقيت العنصرية متوارية كامنة؛ إلا أن الحكم بن المستنصر أخطأ خطأ شنيعاً حين جعل الخلافة من بعده لابنه الطفل هشام فنجح مغامر كبير هو المنصور بن أبي عامر في إحكام سيطرته على الخلافة الأموية (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) ثم تهاوت الأمور بعد المنصور، وسقطت دولته الدخيلة على يد ابنه الثاني عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر الملقب (بشنجول)

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

بعد أن أفقد الخلافة الأموية هيبتها، وبعد أن تحركت العنصرية من جديد نتيجة إيثار المنصور للبربر على العرب!!

وكان سقوط دولة بني عامر مؤذناً بدخول الأندلس في فترة الفتنة التي امتدت من سنة (٣٩٩ - ٤٢٢هـ) ويكفي للدلالة على ما تمتاز به هذه الفترة من قلق واضطراب كبيرين أنه قد تقلب على الأمور فيها عشرة حكام تولى أربعة منهم الحكم مرتين، وبعض هؤلاء الحكام من الأمويين[1] وبعضهم من حمود[2] الذين استولوا على السلطة في قرطبة سنة (٤٠٦هـ) وأخذوا يعبثون بالحكم فيولون ويعزلون كما يشاءون، ويطلقون

---

(١) وهم: محمد الثاني بن هشام، وسليمان بن الحكم، وهشام الثاني، وعبد الرحمن الرابع، وعبد الرحمن الخامس، ومحمد الثالث بن عبد الرحمن، وهشام الثالث (راجع القلقشندي: صبح الأعشى ٥/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) وهم: علي الناصر بن حمود، والقاسم المأمون، ويحيى بن علي ابن حمود (المكان السابق).

من الألقاب ما يحلو لهم، وبديهي أن تولي بعض الخلفاء الحكم أكثر من مرة كان بتأثير الفتن الدائرة وأسلوب الانقلابات الدموية!!

وقد انفكت عروة الدين من النفوس، بعد أن تفككت مشروعية الحكم، فأصبح الأمر صراعاً جنسياً بين عرب وبربر وصقالبة[1] واستعان بعضهم بالنصارى على بعض.

لقد أحسَّ الخليفة الشرعي هشام بن الحكم في أخريات أيام الدولة العامرية بعمق الكارثة التي توشك أن تحيط بالأندلس والخلافة الأموية، كما أحسَّ بأنه أمام ابن عامر لا يعدو أن يكون أسيراً في قصره، محجوباً عن الناس مقصياً عن دفة الحكم.

ولئن كان ابن عم هشام الملقب بمحمد بن هشام الثاني (المهدي) قد استطاع بمعونة المؤمنين بضرورة

(١) راجع: محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص٢٠، ٢١ طبع مصر.

الخلافة الأموية أن يصل إلى الحكم في محاولة أخيرة لإعادة خلافة بني أمية المتداعية[1] (١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ - ١٠٠٨م)؛ فإن بني أمية لم يكونوا بقادرين على الصمود في ميدان النضال طويلاً، ذلك لأنهم لم تكن لديهم بعد العوامل الأدبية والدينية والتاريخية قوة مادية يعتد بها[2].

كما أنه خلال الفترة التي أمضاها المنصور بن أبي عامر في الحكم كان قد اعتمد على البربر والصقالبة في تكوين جيشه وفي بقية أعماله، وما إن توفي (المنصور) حتى أصبح هؤلاء قوة ليس من السهل القضاء عليها، فضلاً عن أنه أضعف من كيان بني أمية كثيرا، ولم يعد ممكناً - في ظل هذا الوضع - لأية سلطة - أموية أو غير أموية - أن تثبت وتستقر[3].

---

(١) المراكشي: المعجب ص ٨٦ طبع مصر بتحقيق سعيد العريان.
(٢) عنان: السابق ص ١٣.
(٣) المراكشي: المعجب: ص ٨٦.

لقد ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمير الأموي الملقب بالمهدي (٣٩٩ - ٤٠٠هـ)، على عبد الرحمن ابن أبي عامر، وقوض الدولة العامرية وأنهى فترة الحجابة، ولكنه اضطهد البربر لأنهم كانوا أعوان العامريين وجندهم، وطارد الصقالبة، لأنهم كذلك كانوا رجال العامريين وخدمهم، وتشدد مع الأندلسيين ونزع السلاح من كثير منهم لأنه كان يخاف هياجهم، وأعلن كذلك وفاة الخليفة هشام، بعد أن أحضر جثة تشبه جثته، وأشهد على الوفاة بعض الفقهاء ورجال القصر، وشيع جنازة الخليفة وهو حي لا يزال، إذ كان قد سجنه في مكان خفيّ.

وبالإضافة إلى ذلك كله، عرف محمد بن هشام - رغم اتخاذه لقب المهدي - بالفسق والفجور والميل إلى الملذات، كما اشتهر بالقسوة والعنف[1].

---

(١) د/ أحمد هيكل: الأدب الأندلسي منذ الفتح حتى سقوط الخلافة ص ٢٤٣.

وبسبب سياسة محمد بن هشام بن عبد الجبار الطائشة اشتعلت الفتنة بقرطبة بين البربر والعامة، وأمر ابن عبد الجبار أن ينادي في الناس: من أتى برأس بربري فله كذا، فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه فلم يبق تاجر ولا جندي إلا عمل مجهوده في ذلك.

ودخلوا على وسنار البرزالي وكان ممن له آثار جميلة في الجهاد فذبح على فراشه في داره، ودخلوا على رجل صالح فذبح في داره ونهبت ديار البربر وهتك حريمهم وسبي نساؤهم وباعوهن في دار البنات، وقتلوا النساء الحوامل، وقتلوا سبعة عشر رجلاً من أهل تلمسان قدموا للغزو في ساعة واحدة، واستنزل مسلم بن عبد الله الحسيني من داره فقتل وربط في رجله حبل وجُر به إلى حفرة بجوار داره تعرف بحفرة طالوت فألقي فيها وانتهبت داره وفضح بناته وعياله، وقتل قوم من أهل خراسان وأهل الشام على أنهم بربر، وأمعن أهل قرطبة في هذه القبائح حتى أخذهم الله بذلك عما قريب

ومحقهم إلى الأبد[1] .

وكان مقام البربر بالزهراء، وكان أهل قرطبة لرداءتهم لا يألونهم إلا شراً وكل من وجدوه منهم في خلوة أو منفرداً قتلوه غيلة، وكان البربر إذا دخلوا أسواق قرطبة تخوفوا من العامة، فإن صهل فرس على فرس قامت نفرة لتعصب العامة عليهم وبغضهم فيهم، وهم مع ذلك صابرون ينهون سفهاءهم وعبيدهم أن يمد أحد منهم يده إلى أندلسي[2] (عربي أو مولدي)[3]!!

وبلغ من استخفاف أهل قرطبة بالإسلام في هذه

---

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج٣ ص ٨١.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٣ / ٨١.

(٣) تشكل الصراع في الأندلس إلى صراع بين العرب الأصلاء والمولدين من جهة، والبربر والصقالبة من جهة ثانية، فقد أصبحت هناك عصبية عربية أندلسية تقوم على مناهضة الأجانب أي البربر والصقالبة / انظر د/ عبد العزيز السالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ج ١ / ١٢٥ طبعة بيروت ١٩٧١م.

الفتنة أن رجلاً نصرانياً وقف في أعظم شوارع قرطبة فقال: . . . ونال منه - ﷺ - وشرفه وكرمه - فلم يكلمه أحد منهم بكلمة فقال رجل من المسلمين غيرة للنبي: ألا تنكرون ما تسمعون! أما أنتم مسلمون؟! فقال له جماعة من أهل قرطبة: امض لشغلك، وكان الإفرنج إذا سمعوا الأذان للصلاة يقولون قولا لا يذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء. وجمع أهل قرطبة مالاً كثيراً للإفرنج وسألوا القاضي ابن ذكوان أن يدفع إليهم مال الأحباس المودع في المقصورة الجامع فامتنع عليهم فكسروا باب المقصورة وأخذوه ودفعوه إلى الإفرنج[1].

وسأل ابن عبد الجبار وواضح الإفرنج الرحيل إلى البربر فتثاقلوا فلم يزالا يرفقان بهم ويتذللان لهم حتى أجابوا، فسارت مقدمة القوم وفيها واضح، وسار ابن عبد الجبار ومعه كل من قدر على حمل السلاح من أهل قرطبة والبوادي وهم يرون أنه الجهاد الأكبر، فساروا

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب ج ٣ ص ٩٧، ٩٨.

حتى نزلوا على البربر بوادي آره يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة من سنة أربعمائة، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم واضح وابن عبد الجبار والإفرنج أعظم هزيمة وقتل من الإفرنج أكثر من ثلاثة آلاف وغرق منهم خلق[1].

وهكذا كانت بداية عصر الطوائف الثاني النكد (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ) وهكذا استمرت العشرون سنة القادمة على هذا النحو المشئوم الذي اختلطت فيه المعايير، وضاعت قيم الإسلام ووشيجته، وارتفعت العنصرية والأحقاد التي جعلت المسلمين يفرحون ويتذللون ويبذلون الكثير للنصارى من أجل قتال إخوانهم المسلمين البربر!!

والإنصاف يقتضينا أن نذكر أن مسئولية الفتنة لا تقع على طائفة بعينها، بل تقع على الجميع، ويتحمل فيها العرب والبربر والصقالبة وبنو أمية أقداراً تكاد تكون

(١) المكان السابق نفسه.

متساوية، وذلك على العكس مما يذهب إليه كثير من المؤرخين - ومنهم ابن حزم - من تحميل البربر المسئولية وحدهم[1].

فالحق أن ما أصاب الأندلس في هذه الفترة كان فتنة عامة يتحمل الجميع مسئوليتها، وقد أدت في نهايتها إلى سقوط الأندلس - التي كانت تحكمها خلافة واحدة - فهوت إلى معترك مروع من التمزق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة تمتد من ضفاف دويرة شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن شاطئ البحر الأبيض من طركونة شرقاً حتى شاطئ المحيط الأطلنطي غرباً، إلى أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة لا تربطها أية رابطة مشتركة[2]، وقد انتثر عقب هذا عقد

---

(١) المقري: نفح الطيب ١/ ٤٠٦ في حديثه عن بني حمود، ويميل إلى هذا الدكتور عبد العزيز السالم: انظر قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ج ١ ص ١٢٠ بيروت ١٩٧١.

(٢) عنان: دول الطوائف ص ١١ نشر مصر.

الأندلس بين العناصر الثلاثة المتصارعة إلى أكثر من عشرين دولة[1]: البربر في الجزء الجنوبي، والصقالبة في القسم الشرقي أما باقي البلاد فكانت بين أسرات العرب[2].

وقد أدى تقسيم الأندلس إلى هذه الدويلات العنصرية المتحاربة ـ فيما بينها ـ المترامية على أقدام نصارى الشمال تستمد منهم البقاء، ولو بالجزية يدفعونها . . .

أدى هذا التقسيم إلى كارثة مروعة هي سقوط طليطلة، قلب الأندلس، في يد النصارى سقوطاً نهائياً[3] يوم الأربعاء ـ السادس من أيار سنة ١٠٨٥م

---

(١) عنان: دول الطوائف ص ١٦.

(٢) بروكليمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٠٦ بيروت.

(٣) انظر ابن الكرديوس وابن الشباط: تاريخ الأندلس وصفه ص ٨٥ بتحقيق أحمد مختار العبادي مدريد ١٩٧١.

(٤٧٨هـ)[1].

وقد تلا سقوط طليطلة استيلاء القشتاليين على جميع أراضيها الممتدة شمالي نهر التاج بين مدينة طلبيرة غرباً وبلدتي وادي الحجارة وشبنتريه في الشرق[2] ولم يلبث خط وادي التاجو بما فيه من مدن وقرى وضياع أن انهار بانهيار قاعدته الرئيسية؛ إذ كانت مملكة طليطلة تحتل رقعة شاسعة في قلب أسبانيا على طول وادي التاجو من الشرق إلى الغرب، ومن أهم أعمالها مدينة سالم ووادي الحجارة ومحريط وقونكة وإقليش وطلبيرة وغيرها[3].

لقد احتل العدو القشتالي الأراضي الأندلسية الشائعة التي امتدت جنوباً حتى جبال قرطبة، وقد أطلق

---

(١) د/ عبد الحميد نعنعي: الإسلام في طليطلة ص ٣٠٣ نشر دار النهضة.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٤.

(٣) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦١.

الأسبان على هذه المنطقة الجديدة المحتلة اسم قشتالة الجديدة[1].

ولقد كانت خسارة المسلمين في ذلك كبيرة مدمرة إذ تركوا للأسبان ربع مساحة أسبانيا الإسلامية، فيها من المزارع والقرى مالا حصر لها، وبينها ثمانون موضعاً في كل منها مسجد، ومدن طالما كانت حواضر مزدهرة للإسلام مثل: فاقدة، والفهمين، وطلمنقة، ومورة، وأقليش، وكركي، والمدور، واليط، وأبلة، وسقوبية، وقورية، وأوسما[2] بالإضافة إلى الحواضر الكبيرة، كوادي الحجارة، ومدينة سالم، المذكورين سلفاً.

وأفدح ما في خسارة المسلمين الأندلسيين آنذاك كان في جعل نهر التاج (التاجو) - الثغر الأوسط للمسلمين - حدوداً جديدة لدولة الإسلام في الأندلس، والتخلي نهائياً عن خط (الدويرو) الواقع بعيداً إلى

(١) المكان السابق.

(٢) د/ عبد المجيد نعنعي: الإسلام في طليطلة ص ٣٠٤.

الشـمـال[1] عند الثغر الأعلى، فأصبحت الأندلس مخترقة من القلب وليس من الأطراف كما هي العادة، فأصبح موقف المسلمين في الأندلس في غاية الحرج ، وعجزوا تماماً عن استعادة طليطلة على الرغم من ظهور قوى مغربية عظمى وقفت معهم ممثلة في المرابطين والموحدين.

وقد ظللت الأندلسيين بعامة سحابة من الكآبة والشعور بالغربة عبر عنها الشاعر الطليطلي أبو محمد عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العسال في قوله:

يا أهل أندلس شدوا رواحلكم

فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى

ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٥.

وكان هذا الحصاد هو الثمرة المرة الكبيرة التي أفرزتها العنصرية القبلية والقومية التي سيطرت على العرب بين قيسيّهم ويمنيّهم، وبينهم وبين البربر والمولدين، ثم بين العرب والمولدين من جانب والبربر والصقالبة من جانب آخر . . . أفعال تلد ردود أفعال . . وأحقاد تلد أحقاداً . . وكل ذلك يجري بعيداً عن أخوة الإسلام وشريعته العادلة الرحيمة القائمة على نبذ العنصرية المنتنة، وعلى أنه لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي إلا بالتقوى والعمل الصالح . .

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1].

أ.د / عبد الحليم عويس

(١) الحجرات: ١٣.

الفهرس

رقم الإيداع : ٤١٣٨/ ١٩٩٤

I.S.B.N : 977- 255 -093-8

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN